ابن طباطبا العلوى
وجهوده النقدية
الدكتور عبد الحميد القط[١]

كتب الدكتور عبد القادر القط مقالا بعنوان «النقد العربى القديم والمنهجية» بمجلة فصول العدد ٣ أبريل ١٩٨١ ، محاولا تخليص ذلك النقد من آثار بعض الدراسات الحديثة التى يدخل أصحابها إلى موضوعات دراستهم فى ذلك النقد . وفى أذهانهم بعض الأفكار النقدية الحديثة ، ملتمسين فى ذلك النقد القديم ما يثبت معرفة أصحابه لتلك الأفكار أو سبقهم إليها ، منتزعين بعض العبارات الواردة فى ثنايا كتب النقد القديم من سياقها . واضعين إياها فى حيز واحد محاولين أن يخلقوا بذلك نظرة شاملة أو متكاملة فى النقد لهذا الناقد أو ذاك من القدامى. وفى مثل هذا المنهج خطورة على تراثنا القديم ، والحديث معا ، لأن التراث – مع تسليمنا بأهميته فى تكوين ثقافة الفنان ، والناقد معا – وإثراء وجدانهما بتراث أمتهما ، لا ينبغى أن يتجمد ، أو يكتفى به وإنما ينبغى تجاوزه – ما دام ذلك ممكنا – دون أن نعتقد أنه ليس فى الأمكان أبدع مما كان . ولا بد أن ندرك أن التراث كله – وليس تراثنا وحده – يجمع بين الغث والسمين ، والصالح والطالح . وإذا اردنا لتراثنا أن يستمر فعلينا أن ندرسه بموضوعية ، تساعدنا على الكشف عما به من كنوز تثرى حاضرنا وتضيف إليه ، بل إننا يمكن أن نتساءل – مع الدكتور عبد القادر القط – عما سيثبت للزمن من تراثنا المعاصر بعد ثلاثمائة عام . وهل ستقبله الأجيال التالية على علاته ؟ أم ترفض ما تراه غير ملائم منه، وتبقى على ما تراه صالحا ؟. ولا يعنى هذا الموقف من التراث إزراء عليه ، ولا غضا من شأنه . بل يكمن خلف ذلك الموقف حب والتراث . والحرص عليه ، ويعبر عن ذلك الدكتور عبد القادر القط فى مقاله السالف الذكر بقوله «وبعد . فلم يكن القصد أن نزرى بما أعطاه هؤلاء النقاد من دراسات فيها كثير من المعرفة الواسعة بتراثهم حينذاك من الشعر والنثر ، وفطنه إلى كثير من أسرار اللغة وألوان تعبيرها ، بل قصدنا إلى الدراسة الموضوعية لكى نضع ما خلفه هؤلاء النقاد فى موضعه بالقياس إلى ألوان أخرى من تراث الفكر العربى أكثر إحاطة وأعمق نظرا . وأقرب

---

(١) نشرت بمجلة الثقافة ، العدد ١٠٧، أغسطس ١٩٨٢ ص ٢٦ وما بعدها.

إلى مناهج البحث العلمى ، وأن ننبه إلى المخاطر التى يمكن أن يقع فيها الناقد الحديث إذا أسقط على هذا التراث ثقافته الحديثة ونظريات النقد المعاصر ، محاولا أن يجمع من تلك الأشتات المتناثرة مذهبا نقديا متكامل الجوانب ، إذ لا بد لمثل هذا الناقد أن يتعسف التأويل فى كثير من الأحيان ، ويختار من هنا وهناك شذرات مما يمكن أن يقيم بها نظريته ، متجاهلا ما يمكن أن يناقضها أو يتعارض معها . ولا يمكن أن ننسب إلى عصر من أخصب عصور الحضارة العربية «نظرية» نبنيها على آراء جزئية متفرقة فى وقت كان هناك للعرب «نظريات» و «مذاهب» كثيرة شاملة وكاملة فى الفقه والتفسير، والكلام والنحو وغيرها من العلوم[1]..

وقد تعرض الدكتور عبد القادر القط لابن طباطبا العلوى فيمن تعرض لهم من النقاد العرب القدامى، وتحدث عن جوانب من القصور فى نقده . فنشر الدكتور عبد الحميد محمد العبيسى فى مجلة الأزهر مقالا بعنوان «ابن طباطبا فى نقده الابداعى»[2]. وما يثير دهشة القارىء أن المقال يبدأ من منطق الدفاع عن التراث، وبصورة عفا عليها الزمن فيقول: «ودرءا لتلك الدعوات التى تصدر عن بعض المعاصرين بين الحين والحين ، ويرددها البعض بقصد أو بدون قصد ، وهى - بأى مقياس - لا تخلو من الغمز واللمز لهذا التراث العربى العريق ، وأن قال أصحابها : أنهم لا يقصدون بها الازراء أو الانتقاص من هذا التراث !!..

ومن بين تلك الدعوات ما نشر مؤخرا فى مقال حول «النقد العربى القديم والمنهجية» . ومما يثير الدهشة والغرابة كذلك أن العبيسى لا يذكر اسم الدكتور عبد القادر القط صاحب المقال ، ولا يشير إليه من قريب أو بعيد . بل يكتفى بالقول عنه : «واعتقد أن صاحب المقال بخبرته النقدية الطويلة يتفق معى الخ» ..

وسوف نتجاوز عن مثل هذه الأمور ، ونتناول بعض الحقائق التى أصبحت شائعة فى مجال الدراسات الحديثة فى النقد العربى القديم . مثل : الفصل بين الشكل والمحتوى الذى عرف به ذلك النقد ، والذى تبلور فى قضية اللفظ والمعنى ، وهو فصل كانت له خطورته على الأحكام النقدية ، ومثل تركيزه على العبارة أو الجملة واشتغال أصحابه

---

(١) دكتور عبد القادر القط «النقد العربى القديم والمنهجية» مجلة فصول العدد ٣ أبريل ١٩٨١ ص ٣١ .

(٢) دكتور محمد عبد الحميد العبيسى «ابن طباطبا فى نقده الابداعى» مجلة الأزهر ، الجزء السادس السنة الرابعة والخمسون ، ص ٩٠٣ .

بالتعليم . وقد دار النقاد القدامى فى حلقة مفرغة عدة قرون . وأصبحت آراؤهم اجتهادات تعوزها المنهجية بالمفهوم الصحيح . وقد أشار إلى ذلك كله الدكتور عبد القادر القط – فى ما أشار إليه – فى مقاله . كما تعرض إلى تحديد مفهوم الشعر فى النقد العربى القديم ، فى بحثه القيم «مفهوم الشعر عند العرب كما يصوره كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى» وحدد هذا المفهوم فى عدد من المباحث أو السمات هى: الأصالة ، واللفظ والمعنى ، والايجاز والاستواء ، والواقع والواقعية ، وغنى عن البيان أن الشعر كان يتحدد فى إطار تلك المباحث الجزئية .

ولكن ذلك كله لا ينفى اجتهاد النقاد العرب ، ولا يمحو كل فضل لهم ، وهو ما نبه إليه الدكتور عبد القادر القط فى مقاله . ولكن المنهجية تقتضى أن يوضع النقد العربى القديم فى إطار عصره ، وألا يحمل ما لا يطيق . وقد تنبه الدكتور العبيسى إلى تلك الحقيقة ، فقال أن : «موروثنا النقدى له ظروفه وملابساته ، وله مقاييسه ومبادئه، فاذا تعاملنا مع هذا الموروث يجب ألا تفارقنا هذه الحقيقة ، فلا نحمل هذا التراث ما لا يطيق ، ولا نطلب من صانعى هذا التراث – وهم مبدعون فى جملتهم – أكثر مما قدموه أو طرحوه» ، ولكنه أغفلها عند التطبيق .

ونتوقف بعد هذه المقدمة عند ابن طباطبا العلوى (ت ٣٢٢هـ) ونقده الابداعى المزعوم الذى يحله تلك المكانة التى يحله أياها صاحب المقال ، حتى أنه يفضله على ابن المعتز صاحب كتاب «البديع» . زاعما أن الأخير اتخذ من البلاغة وحدها أسسا فى صنعة الشعر ، وهو رأى لا نوافقه عليه ، لأن ابن المعتز كان يحدد مفهوم المذهب الجديد الذى عرف «بالبديع» الذى زعم المحدثون من الشعراء أنهم ابتكروه ، وبخاصة وأن أغلبهم لم يكن عربيا فدافع عن العرب . وحدد ذلك الجديد بدقة ، وظل رأيه فى هذا الشأن يتردد فى كتب النقد من بعده ، مثل كتاب الموازنة للآمدى. وعمله هذا يقع من النقد فى الصميم ، وليس عملا بلاغيا صرفا .

قلنا أن الدكتور العبيسى خالف فى التطبيق ، ما وافق عليه نظريا . ومصداق ذلك قوله عن ابن طباطبا أنه : «ظاهرة أدبية ونقدية تكاد تكون فريدة فى عصره ويكفى أنه لم يسبق إلى ذلك الأساس الفنى المحكم الذى وضعه بخبرته وذوقه مستلهما دراسات السابقين وصولا إلى صنعة الشعر» فليس ابن طباطبا ظاهرة فريدة . وليست آراؤه بمثل تلك القيمة التى يراها الدكتور العبيسى. وسوف نستعرض عملية الابداع الشعرى كما

يتصورها ابن طباطبا ليتضح لنا أنها آراء فجة ولا قيمة لها على الاطلاق : كما يتضح من قوله : «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه فى فكرة نثرا ، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التى تطابقه ، والقوافى التى توافقه ، والوزن الذى يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يروقه أثبته ، وأعمل فكره فى شغل القوافى بما تقتضيه من المعانى على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله، فإذا كملت له المعانى ، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعا لما تشتت فيها ، ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ، ونتجته فكرته ، فيستقصى انتقاده ويرم ما وهى منه ، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية ، وإن اتفقت له قافية قد شغلها فى معنى من المعانى ، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول ، وكانت تلك القافية أوقع فى المعنى الثانى منها فى المعنى الأول ، نقلها إلى المعنى المختار الذى هو أحسن ، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه ، وطلب لمعناه قافية تشاكله» وهذا الكلام يعنى أن عملية الابداع فى الشعر تتخذ الخطوات التالية :

١ – وضع الشاعر للمعانى التى يريد أن يصوغها فى قصيدته فى عبارات نثرية ، قبل أن يصوغها شعرا .

٢ – إعداد الألفاظ المناسبة التى تطابق تلك الأفكار بعد أن وضحت لديه بعد صياغتها النثرية السابقة .

٣ – بعد الفراغ من اختيار الشاعر للألفاظ والمعانى ، عليه أن يختار الوزن والقافية الملائمين لهما .

٤ – ولا مانع فى أثناء ذلك أن يثبت ما قد يتصادف أن يكون قد نظمه من أبيات الشعر إذا وجدها تتفق والمعانى التى اختارها .

٥ – وعليه بعد ذلك أن يربط بين القوافى والمعانى الملائمة لها ،على ألا يقوم بترتيب أبيات القصيدة فى تلك المرحلة (المتقدمة من العملية الابداعية للشعر) ، بل يوردها كما اتفق له نظمها حتى ولو كانت تختلف مع ما قبلها .

٦ – تأتى بعد ذلك كله مرحلة الترتيب ، وذلك عند اكتمال المعانى التى يريد الشاعر أن يصوغها فى قصيدته شعرا ، وعندما تكثر لديه الأبيات التى نظمها (أو بعبارة أخرى

عندما يجد أنه قد انجز محصولا وفيرا من المعانى والأبيات) . وفى مرحلة الترتيب تلك توضع أبيات القصيدة فى نظام يجمع ما تشتت منها .

٧ – وتتلو تلك المراحل وتتمها مرحلة الانتقاد التى تنحصر فى استبدال . لفظة مستكرهة بأخرى نقية ، أو نقل معنى من بيت إلى بيت آخر إذا وجد الثانى أفضل من الأول ، أو تغيير قافية بأخرى .

ولا يخفى أن الابداع الفنى لا يمكن أن يتحقق بتلك الكيفية التى تنفصل فيها مراحل الابداع الفنى ، وتتعاقب بصورة يغلب عليها الذهن الواعى ، فى حين أن العملية الابداعية عملية معقدة ، يسهم فى تشكيلها الوعى واللاوعى معا ولا ينفصل اللفظ عن المعنى فى أثنائها هذا الانفصال، ولا يمكن –أيضا – أن ينفصل الوزن والقافية عن التجربة ككل . ولذا يقول أحد الباحثين مؤكدا أن عملية الابداع الفنى لا يمكن أن تنفصل ، أو تتفتت بمثل تلك الصورة التى تفقدها وحدتها : «انتهينا فى فصل سابق عن «عملية الابداع» إلى أن تفتيت هذه العملية إلى مراحل معينة يفقدها وحدتها وكليتها وحيويتها .. فتشريح فعل الابداع إلى أجزاء يؤدى فى النهاية إلى قتله، أو إلى رسم صورة ثابتة جامدة له لا تعبر عن حقيقته الدينامية»[١].

وليس من المبالغة القول أن الشعر لا يمكن أن يبدعه شاعر على طريقة ابن طباطبا ، بل وليس من الشطط القول بأنه لن يكون شعرا عندئذ وعندما يقال إن ابن طباطبا طبق مقياس «الصنعة» على عملية الابداع الشعرى ، دون أن يفطن إلى الفارق الكبير بين عمل الصانع والشاعر ، يكون ذلك القول صحيحا ومما يؤكد ذلك قوله : «ويكون كالنساج الحاذق الذى يفوف وشيه بأحسن التفويف .. وكالنقاش الرقيق الذى يضع الاصباغ فى أحسن تقاسيم نقشه .. وكناظم الجواهر الذى يؤلف النفيس منها والثمين الرائق ، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها فى نظمها وتنسيقها ، وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتى فيه بالكلام البدوى والفصيح لم يخلط به الحضرى المولد». وقد يقال إنّ ابن طباطبا لا يقصد «بالصنعة» إلا الجانب الفنى الذى يضيفه الصانع باعتباره جهدا إبداعيا . ولكن هذا القول ليس إلا حسن ظن فحسب ، لأن تصوره السابق لعملية الابداع الفنى ، التى تبدو كل مرحلة من مراحلها مستقلة عن الأخرى ، يكشف عن

---

(١) دكتور أحمد عيسى الابداع فى الفن والعلم ، عالم المعرفة ، الكويت ١٩٧٩ ص ١٢٧ .

سوء فهم لتلك العملية الفنية المعقدة التى لا يمكن أن يكون العقل وحده أساسها ، أو بعبارة أخرى لا تتم بوعى كامل من الفنان .

وننتقل إلى موضوع ثان أثاره صاحب المقال وهو موضوع الوحدة العضوية للقصيدة ، التى يرى أن ابن طباطبا سبق إليها أصحابها . فيقول : «.. ومما يجب تسجيله لابن طباطبا عنايته بالوحدة الفنية للقصيدة ، بما يحقق الانسجام بين معانيها ،والالتحام بين أفكارها ، فلا تراها ممزقة الأوصال ، ومهلهلة المعانى» .. ويبالغ فيجعل ابن طباطبا أول من دعا إلى الوحدة العضوية فى القصيدة التى دعت إليها مدرسة الديوان ، وهى دعوى عريضة لا تثبت للتمحيص . وبخاصة إذا فهمنا عبارة ابن طباطبا على وجهها الصحيح يقول ابن طباطبا : «وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يسبق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله . فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة فى اشتباه أولها بآخرها ، نسجا ، وحسنا وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ودقة معان ، وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعانى خروجا لطيفا على ما شرطناه فى أول الكتاب حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا ، كالاشعار التى استشهدنا بها فى الجودة والحسن واستواء النظم لاتناقض فى معانيها ، ولا وهى فى مبانيها ولا تكلف فى نسجها تقتضى كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها مفتقرا إليها . فإذا كان الشعر على هذا المثال سبق السامع إلى قوافيه قبل أن ينتهى اليها راويه ، وربما سبق إلى إتمام مصراع منه اضطرارًا يوجبه تأسيس الشعر»[١].

وترد كلمة المعنى فى النص السابق بمعنى الموضوع فى إطار القصيدة الطويلة أو بعبارة أخرى بمعنى الغرض ، كالغزل ، أو الرثاء أو الفخر أو الوصف أو ما شابهها . بحيث يخرج الشاعر من موضوع إلى موضوع خروجا لطيفا ، كما قال ابن طباطبا فى أول كتابه عيار الشعر . كأن ينتقل من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، وقد عرف هذا الانتقال بالتخلص : «فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه فى فنونه صلة لطيفة ، يتخلص من الغزل إلى المديح ومن المديح إلى الشكوى ومن الشكوى إلى الاستماحة ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق ، ومن وصف الرعود والبروق إلى وصف

(١) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق محمد زغلول سلام ، دار المعارف الاسكندرية ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

الرياض والرواد ، ومن وصف الظلمان والأعيار إلى وصف الخيل والأسلحة ، ومن وصف المفاوز والفيافى إلى وصف الطرد والصيد ، ومن وصف الليل والنجوم إلى وصف الموارد والمياه والهواجر والآل ، والحرابى والجنادب ، ومن الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف ، ومن الاستعانة والخضوع إلى الاستعتاب والاعتذار ، ومن الإباء والاعتياص إلى الاجابة والتسمح بألطف تخلص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون متصلا به وممتزجا معه»[1] وكل ما يطلبه ابن طباطبا فى نصه السابق هو الانتقال من غرض إلى الآخر بصورة غير فجائية حتى تبدو متصلة بما قبلها ، يقول : «ومن الأبيات التى تخلص بها قائلوها إلى المعانى التى أرادوها من مديح أو هجاء أو افتخار أو غير ذلك، ولطفوا فى صلة ما بعدها بها فصارت غير منقطعة عنها ما أبدعه المحدثون من الشعراء»[2] وهو ما يعنيه بالتخلص . حقا يحاول ابن طباطبا أن يكشف عن أن الرابطة المنطقية والمعنوية بين شطرى البيت غير متحققة[3] ولكنه لم يكن يعنى «الوحدة العضوية» بمفهومها الحديث ، بل ولا نظن تلك الوحدة قد خطرت له ببال . ويبدو لى أنه يقصد بوحدة النسج ما عرف بالاستواء أو عدم التفاوت فى الصياغة اللغوية لأبيات القصيدة . ولعل هذا هو ما جعل الدكتور شوقى ضيف يتحرز وهو يتحدث عن وحدة القصيدة فى نقد ابن طباطبا ، فيقول : وكأنه تنبه للوحدة العضوية ولم يقل تنبه لها بالفعل : فيقول : «وكأنّ ابن طباطبا تنبه فى دقة إلى ما ردده – ولا يزال يردده – النقاد فى عصرنا عن فكرة الوحدة العضوية فى القصيدة ، بحيث تصبح عملا محكما»[4]. ويتضح رأيه الصريح فى قيمة كتاب «عيار الشعر» من قوله : «وقد يكون الكتاب عاما مثل «عيار الشعر» لابن طباطبا ، ولكن حين نقرؤه نجده لا يكاد[5] يتجاوز مشكلة اللفظ والمعنى ، وبعض مسائل بيانية وبلاغية».

ويظهر ذوق ابن طباطبا النقدى فى صورة لا تسمح له بأن يحتل تلك المكانة الرفيعة التى يراد لها أن يتبوأها فى تاريخ النقد العربى القديم . فهو عندما يتناول بالنقد بعض الأبيات الجيدة ، يزعم بأنها رديئة ، لمجرد أن الشاعر أبعد فى الخيال أو بعبارة أخرى فى المجاز . فيذكر قول المثقب العبدى فى ناقته :

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٣٠ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٤) دكتور شوقى ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ طبعة ٣ ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٧٩ ص ١٢٧ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٢ .

تقول وقد درأت لها وضينى　　أهــذا دينــه أبدا ودينى
أكل الدهر حــل وارتحال　　أمــا يبقى على ولا يقينى

مسبوقا بقوله : «فمن الحكايات الغلقة والاشارات البعيدة قول المثقب العبدى فى وصف ناقته» . ويعقب على البيتين بقوله : «فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة ، وإنما أراد الشاعر أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول: والذى يقارب الحقيقة قول عنترة فى وصف فرسه :

فازور من وقــع القنا بلبانه　　وشكا إلى بعبرة وتحمحم[١]

والواقع أن بيتى المثقب العبدى فى ناقته رائعان ، ويصوران ما يتمتع به من إحساس مرهف دقيق، أتاح له أن يعبر عن أحاسيس ناقته التى تربطها به ألفة وعاطفة صادقة ، وأن يصور اشفاقه عليها من رحلاته المضنية إلى ممدوحيه ، ولا يقل البيتان جودة عن بيت عنترة . وقد قدم الدكتور طه حسين لأبيات «المثقب» العبدى فى ناقته بقوله : «إنما أقف بك عند هذه الأبيات لأنها خليقة بأعظم الاعجاب وأقواه حقا» ثم يورد الأبيات الثلاثة الآتية للشاعر :

إذا ما قمت أرحلهــا بليل　　تــأوه آهة الرجــل الحزين
تقول إذا درأت لها وضينى　　أهــذا دينــه أبدا ودينى
أكل الدهــر حــل وارتحال　　أما يبقى على وما يقينى[٢]

وسوف لا نورد تحليل الدكتور طه حسين كاملا لتلك الأبيات ، ولكننا نكتفى ببعضه وهو قوله.. «أما أنا فأرى أنه من أروع ما قال الناس ، لا فى اللغة العربية وحدها ، بل فى غيرها من اللغات أيضا»[٣] ليتضح لنا مبلغ إعجابه بتلك الأبيات .

ومن الأمثلة الأخرى على سوء تقديره للشعر ما نراه من غضه للقيمة الفنية للأبيات التالية :

أومت بكفيها من الهــودج　　لولاك هذا العام لم أحجج
أنت إلى مــكة أخــرجتنى　　حبا ، ولولا أنت لم أخرج

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤١ .
(٢) دكتور طه حسين ، حديث الأربعاء ، جـ ١ طبعة ١٢ ، دار المعارف ، القاهرة ص ١٦٩ .
(٣) نفسه ص ١٧٠ .

ويقدم لهما بقوله : «ومن الايماء المشكل الذى لا يفهم ، وقد أفرط فى حكايته قول الآخر» ثم يعقب عليهما بقوله : «فهذا الكلام كله ليس مما يدل عليه إيماء ولا تعبر عنه إشارة ..»[١] وموقف الناقد من البيتين الأخيرين يدل على أن حكمه إما مستمد من غيره – وهو الأرجح – أو حكم ينبىء عن ذوق نقدى متواضع لا يؤهله لنقد النصوص الشعرية . وسوف نرى ذلك التعليق فى كثير من كتب النقد القديمة ،وكأنه حقيقة لا يأتيها الباطل .

ويدفعنا هذا إلى الحديث عن مفهوم الصدق الفني لديه ، وبخاصة وأن كلمة الصدق تتكرر عنده[٢] بمعان مختلفة ، فقد يعنى الصدق مراعاة منازل الممدوحين: «فيخاطب (الشاعر) الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها ، وأن يخلطها بالعامة. كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعد لكل معنى ما يليق به. ولكل طبقة ما يشاكلها ، حتى تكون الاستفادة من قوله فى وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله فى تحسين نسجه وابداع نظمه»[٣].

وهو صدق غير فنى ، لأنه غير نابع من صدق أحاسيس الشاعر تجاه ممدوحه . وقد أصبحت تلك المسألة من المسلمات فى النقد العربى القديم . وقد أشار إلى هذا الدكتور عبد القادر القط فى فى مقالته القيمة «النقد العربى القديم والمنهجية» . كما يرد «الصدق» عنده بمعنى مختلف وهو يتحدث عن التشبيه ، إذا نرى أن التشبيه الجيد يكون قريبا من الواقع والحقيقة . ويزداد صدقا إذا : «اتفق فى الشىء المشبه بالشىء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه وتأكد الصدق فيه وحسن الشعر به»[٤]. فكلما كانت أوجه الشبه بين المشبه والمشبه به كثيرة يكون تشبيها جميلا وصادقا[٥] وفى هذا إغفال لوظيفة التشبيه الحقيقية وهى التعبير عما يشعر به الشاعر. بغض النظر عن التطابق مع الواقع .

---

(١) عيار الشعر ص ١٤١ .
(٢) المرجع نفسه ص ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٦٣ ، ١٠٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ٢٠ .
(٤) المرجع نفسه ص ٣١ .
(٥) المرجع نفسه ص ٣٦ .

وهكذا يصبح الصدق عدوا للخيال ، أو ضابطا له بحيث لا يطلق الشاعر لخياله العنان ، ويتضح هذا من قول ابن طباطبا تعقيبا على قول جنوب أخت عمر ذى الكلب :

فأقسمت يا عمرو لو نبهـــاك ... إذا نبهـــا منك داء عضـــالا
إذا نبهـــا ليث عِرِّيســـة ... مقيتا ، مقيدا نفوســا ومـالا
وخــرق تجاوزت مجهولــه ... بوجناء حرف تشكى الكلالا
فكنت النهـــار بـه شمســـه ... وكنت دجى الليل فيه الهلالا

فتأمل تنسيق هذا الكلام وحسنه ، وقوله مقيتا مقيدا ثم فسرت ذلك فقالت نفوسا ومالا ، ووصفته نهارا بالشمس ، وليلا بالهلال ، فعلى هذا المثال يجب أن ينسق الكلام صدقا لا كذب فيه، وحقيقة لا مجاز معها فلسفيا كقول القائل :

وفى اربـع منى حلـــت منـك أربـع ... فمــا أنا دار أيهـــا هـــاج لى كربى
أوجهـــك فى عينى أم الريـق فى فمى ... أم النطق فى سمعى أم الحب فى قلبى»[١]

ويكون التشبيه صادقا ايضا ، إذا اتبع الشاعر فى صوغه أساليب القدماء، أو قاس عليها ، ويتحقق ذلك الصدق بشرط خاص. وهو المزج بين المعانى فى التشبيهات التى يحدثها الشاعر ، وعدم الاقتصار على الأخذ دون إضافة . يقول ابن طباطبا : «فالشاعر الحاذق يمزج بين هذه المعانى فى التشبيهات لتكثر شواهدها ، ويتأكد حسنها ، ويتوقى الاقتصار على ذكر المعانى التى يغير عليها دون الابداع فيها والتلطيف لها لئلا يكون كالشىء المعاد المملول»[٢].

ولا يخفى أن ابن طباطبا استمد أغلب مفاهيمه عن الشعر من ابن قتيبة ، وبخاصة تقسيمه للشعر إلى حسن اللفظ واهى المعنى . وصحيح المعنى رث الصياغة ، وبارع المعنى فى المعرض الحسن . فهذا كله مأخوذ من تقسيم الشعر إلى أربعة أضرب عند ابن قتيبة[٣]. بل إننا نجد بعض أمثلة ابن قتيبة واردة فى «عيار الشعر» مثل قول الشاعر:

(١) المرجع نفسه ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٢٤ .

ولمـــا قضينا من منى كل حــاجة ومسح بالأركان من هـو ماســح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ولا ينظر الغــادى الذى هو رائح
أخـذنا بأطراف الأحــاديث بيننا وســالت بأعناق المطى الأباطــح

وقد كان ابن قتيبة يمثل بهذه الأبيات للشعر الذى .. «حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى»[١]. والغريب أن ابن طباطبا يعتبر المعنى غاية الشعر، ومن ثم لا تشفع للشعر جودة لفظه وحسن صياغته مادام بدا فقيرا فى المعنى. ومن ثم يحكم على ابيات رائعة بأنها واهية تحصيلا ومعنى مثل قول جرير:

أن الذين غدوا بلبك غــادروا وشـــلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلــن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا[٢]

وهى أبيات يوردها ابن قتيبة كذلك[٣]. كما يورد ابن طباطبا كذلك البيتين التاليين ، ويعيبهما ، لضآلة ما يحملان من معنى.

فياحسنها إذ يغسل الدمــع كحلها وإذ هى تذرى الدمع منها الأنامل
عشية قــالت فى العتــاب قتلتنى وقتلى بما قالت هناك تحـــاول[٤]

وهو ما يدل على تأثره بسابقيه تأثرا لا يسمح له بالاعتماد على ذوقه الخاص . ويكشف عن اتباعيته النقدية ، ومحاولته إخفاءها مما يؤدى إلى اضطراب عبارته وهو يعبر عما عبر عنه سابقوه كابن قتيبة ، الذى صاغ عبارته بايجاز بينما أسهب هو فى التعبير عن الفكرة نفسها فقال : «ومن الأبيات الحسنة الألفاظ المستعذبة الرائقة سماعا ، الواهية تحصيلا ومعنى. وإنما يستحسن منها اتفاق الحالات التى وضعت فيها ، وتذكر اللذات بمعانيها . والعبارة عما كان فى الضمير منها ، وحكايات ما جرى من حقائقها دون نسج الشعر وجودته ، واحكام رصفه واتقان معناه»[٥] فلسنا ندرى ماذا يعنى بنسج الشعر على وجه الدقة إن لم يكن يعنى حلاوة اللفظ، وقدرته على التأثير . وتفتقد أحكامه الحاسة النقدية ، عندما يعلق على قوافى بعض الأبيات معلنا إعجابه الشديد بها كقول الشاعر:

---

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، جـ ١ تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة. ١٩٦٦ ص ٦٦ .
(٢) عيار الشعر ص ٩٩ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٦٧ .
(٤) ، (٥) عيار الشعر ص ٩٩ .

وَأَرَاكَ تَفْرِىَ مَــا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ القَــوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لاَ يَفْرِى
وَلأَنْتَ أَشْجَعَ حِيَن تتجــهُ الـ أَبْطَالُ ، مِنْ لَيْثٍ أَبِى أَجْـرِى[1]

فيقول : «فقوله : «ثم لا يفرى» و «أبى أجرى» حسنان فى موقعهما»[2]. كما يبدى إعجابه بالبيت التالى:

كــأنى لم أكن من بعــد إلــف عذلت النفس قبل على هوى لى

بقوله : «فقوله هوى لى لطيفة الموقع»[3] وتصبح عباراته «عجيبة الموقع» ، و «لطيفة الموقع» ، و «حسنة الموقع» تعبيرا آليا عن إعجابه بقوافى عدد من الأبيات، لا ينبىء عن ذوق نقدى رفيع[4]. ويتضح عجزه عن الاحساس بالقافية المتمكنة من قوله تعقيبا على البيت التالى :

دومى أدم لك بالوفاء على الصفا إنى بعهــــدك واثــــق فثقى بى

«فقوله فثقى بى» لطيفة جدا يستدل بها على حذق قائلها بنسج الشعر»[5].

ولكن ابن طباطبا – برغم ذلك كله – يتنبه إلى أن العرب كانت تمدح ببعض الصفات الجسدية كالجمال والبسطة وايضا بصفات أخلاقية معنوية ، ويورد من الأخيرة الكثير مما يدل على أن المدح العربى كانت تغلب عليه المعنويات لا الماديات[6]. مما يجعل ما ذهب إليه قدامة ابن جعفر ، فى نقد الشعر من الحديث عن المدح بالصفات النفسية ليس بالأمر الجديد أو الذى لم يفطن إليه أحد قبله[7]. ولو استعرضنا المدائح العربية فسوف يتضح لنا أن المدح بالمعنويات أو الهجاء بها ، كان هو الغالب على هذين الفنين ، أعنى فنى المديح والهجاء .

---

(١) المرجع نفسه من ص ١٢٥ وانظر عيار الشعر ، تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع . دار العلوم للطباعة والنشر . الرياض المملكة العربية السعودية ص ١٧٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٨ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٩ .

(٦) المرجع نفسه ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٧) قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، طبعة ٣ تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٨ ص ٦٥ ، ٦٦ .

وقد أحس ابن طباطبا العلوى بمحنة الشاعر المعاصر له والتى تتمثل فى التقليدية الغالبة على الشعر العربى عندئذ . وعبر عن ذلك فى فقرة توسع فيها على بن عبد العزيز الجرجانى ، وأضفى عليها من وعيه النقدى . وبمقارنة تعبير كل منهما عن محنة الشاعر فى زمنهما يتضح لنا الفارق الكبير بين الحاسة النقدية عند كل منهما . فالجرجانى. قد يكون قد أطلع على عبارة ابن طباطبا ، ولكنه خلع عليها وعيه العميق والدقيق بالمشكلة ، فقال : «ولو أنصف أصحابنا لوجد يسيرهم أحق بالاستكثار وصغيرهم أولى بالاكبار ، لأن أحدهم يقف محصورا بين لفظ ضيق مجاله ، وحذف أكثره ، وقل عدده ، وحظر معظمه . ومعان قد أخذ عفوها وسبق إلى جيدها ، فأفكاره تنبث فى كل وجه ، وخواطره تستفتح كل باب ، فإن وافق بعض ما قيل ، أو أجتاز منه بأبعد طرف قيل : سرق بيت فلان ، وأغار على قول فلان ، ولعل ذلك البيت لم يقرع قط سمعه، ولامر بخلده ، كأنّ التوارد عندهم ممتنع واتفاق الهواجس غير ممكن ! وإن افترع معنى بكرا ، أو افتتح طريقا مبهما لم يرض منه إلا بأعذب لفظ وأقربه من القلب ، وألذه فى السمع ، فإن دعاه حب الاغراب وشهوة التنوق إلى تزيين شعره وتحسين كلامه، فوشحه بشىء من البديع، وحلاه ببعض الاستعارة قيل هذا ظاهرة التكلف، بين التعسف ، ناشف الماء ، قليل الرونق وأن قال ما سمحت به النفس ورضى به الهاجس قيل : لفظ فارغ وكلام غسيل ، فإحسانه يتأول ، وعيوبه تتمحل ، وزلته تتضاعف وعذره يكذب»[١]. ويقول ابن طباطبا فى هذا المعنى : «والمحنة على شعراء زماننا فى أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة ، وخلابة ساحرة . فإن أتوا بما يقصر عن معانى أولئك ، ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول وكان كالمطرح المملول ومع هذا فإن من كان قبلنا فى الجاهلية الجهلاء ، وفى صدر الإسلام ، من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم فى المعانى التى ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء، وافتخارا ووصفا وترغيبا ترهيبا»[٢].

ومن ثم يكون ابن طباطبا ناقدا لا خطورة له فى تاريخ النقد العربى القديم حتى ولو وضعناه فى مقابل قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) باعتبار أن الأخير يمثل ذوقا غير عربى فى حين يمثل الأول الذوق العربى غير المتأثر بالثقافات الأجنبية ، فقدامه — برغم كل

(١) على بن عبد العزيز الجرجانى ، الوساطة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوى ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٥٢ .

(٢) عيار الشعر ص ٢٢ ، ٢٣ .

ما قيل فيه مدحا أوقدحا – أكثر نضجا بالقياس إلى ابن طباطبا ، ومن هنا فإن الدكتور عبد القادر القط تعرض للأخير في مواضع قليلة من مقاله في مجلة فصول ، ليضعه في موضعه الصحيح من حركة النقد العربى القديم ، وبخاصة وأن الدكتور عبد القادر القط كان من أوائل من أرخو لذلك النقد، [١] بل وعلمه للطلاب في الجامعة سنوات طوالا. فعلينا إذن أن نضع تراثنا النقدى القديم في ضوء عصره ، وأن ندرك أنه لا يمكن أن يتطابق في مفاهيمه ، مع مفاهيم النقد الحديث لأن ذلك مستحيل ، وضد طبائع الأشياء ، مع العلم بأن هذا لا . يقلل من قيمة ذلك النقد في نظرنا كتراث له حسناته وسيئاته .

(١) انظر كتابه مفهوم الشعر عند العرب الذى نشره بالإنجليزية في بحث للدكتوراه